

الفصل الحادي عشر

أيام الطمأنينة

كان هدفنا التالي ينتصب أمامنا - الجدران الحجرية الرملية الداكنة لجبل الطويل. ومن سفح هذا الجبل هناك مسيرة ثماني ساعات على ظهر الجمال للوصول إلى واحة الجوف في الطرف الجنوبي من وادي السرحان. خططنا مسارنا باتجاه وسط السفح مارين فوق قمم الجبال المحاطة بالصخور السوداء. بين الشقوق العميقة للسلسلة القديمة عرف فارس كيف يختار الشق الذي يوصل إلى (ممر مستندا) الذي نستطيع أن نمر من خلاله إلى السهل خلفه. وجدنا هناك مخيماً رولياً استقبلنا بأذرع مفتوحة. وهناك قررنا أن نبقي لمدة أسبوع كامل لنستريح ونرعى جمالنا.

خلال هذا الأسبوع استطاع فارس تأمين الخلاخيل التي وعد حبيته بها. وذهب إلى الجوف وهناك قايض إحدى نعاماته الصغيرة مقابل الخلاخيل.

كان الأسبوع بالنسبة لي لا ينسى: أسبوع من التفكير والتأمل بالإضافة إلى الانطباعات الجديدة. تجولت مع مناحي في معقل جبل الطويل: أنا لمجرد التمتع بوجودي هناك وهو بحثاً عن الصيد.

اصطاد مناحي عدداً من ماعز الجبل بينها بعض النماذج الرائعة. ولكن على الرغم من وجود هذه التيوس البرية فإن السلسلة مقفرة إلى حد كبير. ولونها السائد داكن بل مائل إلى السواد، وبدت صخورها البارزة الحمر والزرق والأردوازية تعمق هذا السواد بدلاً من التخفيف منه.

في صباح أحد الأيام تركت (مناحي) يذهب إلى الصيد لوحده، وبدلاً من الذهاب معه التحقت بأحد الرعاة. كانت الجمال الموكولة إليه ترعى بعيداً عن المخيم، لذلك كان يأتي إلى المخيم مرة كل ثلاثة أيام.

كانت المنطقة صخرية، وتحولت الجمال فيها طوال النهار بحثاً عن الطعام بين الصخور التي ارتفعت أحياناً حتى رأس الإنسان. جمعنا القطيع ظهراً وقدناه إلى ظل بعض الصخور العالية حيث تمددنا على الأرض نصف نائمين، وباسترخاء متكاسل طيلة ساعات الحر. وعندما تلبدت السماء بالسحب اضطررنا للحركة الدائمة لتجنب البرد الشديد، متوقفين قبل أن تغرب الشمس للحصول على بعض الحليب في وعاء خشبي لعشائنا.

كانت النباتات بين الصخور مليئة بالأزهار العطرة: البيض والبنفسجية والحرمر. بعضها أكسب حليب جمالنا نكهة خاصة لذينة تذكرنا بالقصعين أو البابونج أو بعض النباتات العطرة. هذا الحليب خال من مرارة حليب بعض المناطق، أو حليب وادي السرحان المائي المالح. حتى شوك الجمال يزهر هنا عند سفح جبل الطويل، كما أن الأكاسيا الصغيرة تبعث رائحة حلوة. وأحياناً غطى الطلع الأزرق والأصفر قطيعنا الصغير.

كان رفيقي الراعي فتى نابهاً. وبدلاً من الجلوس على جملة بالأسلوب المعتاد برع في التمدد لساعات طويلة خلف سنامه متعلقاً به كالعقبة. حاولت أن أقلده ولكنني قضيت أكثر من يومين حتى اكتسب هذه المهارة: كيف تثبت ركبتيك في عظام ورك الجمال، ثم تتمدد إلى الأمام وتستعمل سنام الحيوان الوبري كوسادة لمعدتك لتركب براحة مدهشة. قدنا الجمال بالعصي الخاصة بضربها برفق على هذا الكتف أو ذاك. وهكذا سرنا ببطء جنباً إلى جنب والجمال

ترعى أثناء سيرها وتتوقف أحياناً. ولكن علينا أن نراقب جمالنا لأنها كانت تخادع باستمرار.

في هذه الأيام الثلاثة تعلمت الكثير. أدركت أهمية الأصوات الخاصة بالجمال. تعلمت أن في التناغم المرتفع في قرقرة المعدة وفي غرغرة الحنجرة يكمن معنى لا يمكن أن تعبر الكلمات عنه. وحتى التحشؤ بملء الحنجرة تعبير عن أفكار نبيلة. تعلمت كيف أعالج الأشواك التي تخترق نعال الصنادل والأحذية، وكيف أعالج لسعة النحلة التي تجعل شفة الجمل تتورم إلى حجم هائل. كما علمني رفيقي أيضاً كيف أسد ضرع الناقة لمنع سقوط الحليب وبالتالي ضياع الحليب الثمين، وكيفية منع الجمل من «الشرب لعدة ساعات» من ضرع أمه بتثبيت وتد خشبي على أنفه. وتعلمت أن أستدل من الآثار على التربة الحصوية القاسية، وهل كانت الجمال التي عبرت جمال ركوب أو جمال أحمال. كما تعلمت أيضاً قضايا العمر والجنس والتوالد وقضايا أخرى كثيرة.

أصغيت بأنفاس حبيسة إلى رفيقي يقص علي أن الخرزة الزرقاء المربوطة إلى أوبار رقبة الجمل أفضل تعويذة ضد العين الشريرة. كما أخبرني أيضاً عن القراد (الذي يبلغ حجمه حجم الحنظب) الذي يوجد في جلود الجمال، وعن الغربان الزرقاء - السوداء الجميلة التي تقفز على ظهر الجمل بأمان تلتقط بمناقيرها المستقيمة هذه القرادات والطفيليات الأخرى التي تعيش بأمان في وبر الجمال الكثيف.

إن بهجة مراقبة الجمال الصغيرة جعلت أيام تجوالي الثلاثة ثمينة. يا لها من حيوانات رائعة! لكم تعشق لعق وشم بعضها بعضاً! إنها تمشي بصعوبة على قوائمها الطويلة جداً في مجموعات مؤلفة من خمسة إلى ستة جمال، وتدلّك رقابها النحيلة الطويلة.

وعندما يسقط المطر على وبر الجمال الكبيرة أو الصغيرة فإنها تنقلب إلى تموجات وتجعيدات وحواشٍ تسر أي حلاق نسائي عصري.

وعندما جلسنا أمام النار وظهورنا إلى الصخور، وأخذ رفيقي يروي القصة
تلو القصة استمتعت برؤية الجمال تقترب وتتزاحم، وتصغي باهتمام كما لو
كانت تفهم ما يقول. صحيح أنها كانت تقاطع القصة من آن لآخر بالتجشؤ، ثم
تعود بهدوء إلى اجترار مخزونها من الأعشاب المزهرة والأشواك بمصاحبة صرير
الأسنان العالي النشاز. إنها طريقة الجمال!.

كنت في كل صباح أستيقظ لأستمع بشروق الشمس أو النظر إليها بعد
شروقها بين غابة كاملة من السيقان (لأن كل العالم يهوى السيقان الطويلة) أو
تحت عقود من الرقاب الطويلة.

* * *